الفصل الأول

العوامل المؤثرة في فكر ابن حَيَّان التاريخي

- ملامح عصر ابن حَيَّان
- النشأة والتكوين
- وظائف ابن حَيَّان
- ثقافة ابن حَيَّان
- الانتماء المذهبي لابن حَيَّان

obeikandl.com

obeikandl.com

تعددت العوامل التي شكلت فكر ابن حَيَّان التاريخي وتركت أثارها على منهجه؛ ما بين عصر متناقض شهد انحداراً سياسياً وازدهاراً ثقافياً، وبيئة علمية أثرت في توجيهه الفكري، وحضور مجالس علمية وأدبية، بالإضافة إلى وثائق وقع عليها بحكم نشأته في أسرة قريبة من بلاط الخلافة، وهي وثائق يندر وجودها في مصادر أخرى وتغطي مساحة مهمة من التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلاد الأندلس، وانتماء مذهبي أثر في العديد من أحكامه، ووظيفة لم تكن عائقاً لموهبته وجعلته يمضي في كتابة تاريخه الكبير.

وتأتي في مقدمة هذه العوامل، طبيعة العصر الذي عاشه والأحداث التي عاينها، حيث شهدت الأندلس في عصره – رغم الانحطاط السياسي – نهضة فكرية في شتى المعارف والعلوم العقلية، وازدهرت الكتابة التاريخية، وشهدت تطوراً ملحوظاً في المنهج والرؤية[1]، كما كان لاهتمام حكام الأندلس بالحركة العلمية دور في إذكاء فكر ابن حَيَّان وإثرائه، خاصة الحكم المستنصر[2] حيث كان

---

(١) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج فى دراسة التراث. رؤية للنشر والتوزيع، ط١،القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٥.

(٢) الحكم المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ / ٩٦١ – ٩٧٦ م): هو أبو العباس المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن بن محمد الناصر الأُمَوى المروانى، بويع بعد وفاة أبيه سنة خمسين وثلاثمائة، وكان حسن السيرة جامعاً للعلم مكرماً للأفاضل، ذا نهمة مفرطة فى العلم، عاكفاً على المطالعة، جمع من الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك، كما اشتهر بأنه ألف كتباً فى التاريخ، توفى فى شهر صفر سنة ست وستين وثلاثمائة. (الحُمَيِّدى: جذوة المقتبس ص١٣، الضَّبىّ: بغية الملتمس، ص ١٨ – ٢١، الذهبى: سير أعلام النبلاء جـ٨ ص٢٦٩ –٢٧١، ابن عذارى: البيان المُغْرب: جـ٣، ص ٢٣٣ – ٢٣٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال، ط٢، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤١ – ٤٣، المقرى: نفح الطيب، جـ١، ص ٣٨٢ – ٣٩٦، ابن خلدون: العبر جـ٤ ص١٤٤،، أزهار الرياض جـ٢ ص٢٨٦– ٢٩٤، عبد القادر ذنون طه: نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص١٣).

والده مقرباً من بلاطه؛ فتمكن من الوقوع على العديد من الوثائق التي ساعدته على إثراء كتاباته، وهي وثائق يندر وجودها في مصادر أخرى وتغطي مساحة مهمة من التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلاد الأندلس،؛ وقد استعان بالعديد منها بين ثنايا مؤلفاته، ووسط هذا الجو العلمي شب ابن حَيَّان، واستمع إلى الروايات المختلفة والأحاديث الدائرة، مما شكل فكره التاريخي والسياسي والثقافي معاً.

كما كان لتعصب ابن حَيَّان للمذهب السني أكبر الأثر في توجهاته وأحكامه الصادرة ضد أصحاب المذاهب الأخرى وانعكس ذلك بوضوح على كتاباته، أما عن وظيفته فقد كانت السياسة شاغله في بداية حياته، فتولى ديوان الشرطة " ثم صار مسئول" **إملاء الذكر في ديوان بني جَهْوَر**"[1]، وأفاده الاشتغال بالسياسة حيناً في الاطلاع على الكثير من الوثائق الأندلسية التي أورد الكثير منها، كالرسائل المتبادلة بين الخليفتين الناصر والمستنصر، وبين قواد جيوشهم في المغرب، وكتاب الناصر إلي الرعية عقب بطشه بحركة ابن مسرة وهو ما سنعرض له بالتفصيل في فصول الكتاب [2].

وسوف نتناول فيما يلي كل رافد من تلك الروافد والتي جعلته بحق " شيخ المؤرخين بالأندلس ".

ملامح عصر ابن حَيَّان

عاش ابن حَيَّان القرطبي في الفترة ما بين (٣٧٧– ٤٦٩هـ/ ٩٨٧ – ١٠٧٦م)، وهي فترة عامرة بالأحداث السياسية حيث شهدت سيطرة الدولة العامرية، ثم عصر الفتنة، وسقوط الخلافة الأُمَوية، وقيام دول الطوائف، وتفاقم الخطر النصراني، وتعاظم دور اليهود، واندلاع النزاعات العرقية والطائفية[3] وجميعها

---

(١) ابن بَسَّام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة. ج١، تحقيق سالم مصطفى البدرى، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٧٥.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى فى الغرب الإسلامى،ط١، منشورات الزمن، المغرب ٢٠٠٨ م ، ص ١٠٠.

(٣) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ٢٣.

أحداث أثرت بلا شك في خبرته التاريخية وتركت آثاراً واضحة في ثنايا أعماله؛ حيث رصد وبدقة مرحلة الفتن والاضطرابات المتتالية في الأندلس فصور الوضع العام بأن الرعية " **عدموا الراعي العَنُوف منذ حِقَب، فنبذوا السلاح وكلِفوا بالتّرْقيح**"[1] ، **ونافسوا في النّشَبِ، وعطّلوا الجهاد، وقعدوا فوق الآرائك مقعد الجبابرة** "[2] ، وتولى الأمر " **جماعة من الأغمار، كانوا عصابةً يحل بها الفَتاءُ**[3]، **ويذهب بها العُجْبُ**"[4].

وكان الوضع في الأندلس في تلك الفترة قد تغير تغيراً جذرياً؛ فبعدما كانت الخلافة تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، جاء الحاجب[5] المنصور ابن أبي عامر (٣٧٠-٣٩٢هـ / ٩٨٠ – ١٠٠١ م)[6]، وأبناؤه من بعده[7] فانتزعوا منها السلطة

---

(١) الترقيح: الكسب والمتاجرة، وتَرَقَّح لعياله: كَسَبَ وطلب واحتال، راجع، لسان العرب: مادة رقح.

(٢) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ٥٥٤ - ٥٥٥.

(٣) الفتاء: حداثة السن، راجع هامش الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٢٩.

(٤) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٢٩.

(٥) الحاجب: فى أول الأمر كان الحاجب فى الدولة الأُمَوية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه، ثم أخذت سلطة الحاجب فى الاتساع حتى أصبح أرفع الوزراء شأنا، وصار يسمى بذى الوزارتين، وصار يشرف على الشئون المدنية والعسكرية. ولما ولى الحِجابة المنصور بن أبى عامر (الحاجب) أمور الأندلس؛ حجر على الخليفة الأُمَوى الطفل المؤيد هشام الثانى (٣٦٦- ٣٩٩هـ/ ٩٧٦- ١٠٠٩م)، واتخذ الزاهرة عاصمة جديدة بناها بدلا من الزهراء، وسيطر حتى على أم الخليفة (صبح) التى كانت تحاول إنقاذ ابنها من هيمنة الحاجب المنصور، ومن الغريب أن المنصور ظل محتفظاً بلقب (الحاجب) رغم استبداده بالسلطة، كما خلفه أبناؤه الذين احتفظوا بلقب (الحاجب) إلى أن سقطت الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٨م بعد أن سيطرت على الدولة الأُمَوية والأندلس أكثر من ثلاثة عقود، راجع (حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٩ م، ص ٢٥١، شحادة الناطور وآخرون: الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجرى، دار الثقافة، الاردن، ١٩٩٠ م).

(٦) هو: محمد بن أبى عامر الحاجب، طلب العلم والأدب فى قُرْطُبَة، وسمع الحديث، تعلق بوكالة صبح أم الخليفة هشام المؤيد وزاد أمره فى الترقى وتغلب على الأندلس، توفى سنة ٣٩٣ هـ للمزيد راجع، الحُمَيِّدى: جذوة المقتبس، ترجمة رقم ١٢١، الضَّبىّ: بغية الملتمس، ترجمة رقم ٢٤٢، المعجب، ص ٧٢، الحُلة السِّيَراء ، ج١، ص ٢٦٨. ، المقرى: نفح الطيب، ج١، ص ٣٩٦.

(٧) للمزيد راجع: ابن الأَبّار: الحُلة السِّيَراء، ج١، تحقيق، حسين مؤنس، ج١، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ م، ص ٢٦٨ – ٢٧٧ ، وابن عذارى: البيان المُغرب، ج٣، ص ٢٥٣ ، وابن الخطيب: أعمال، ص ٨٠ ونفح، ج١ ص ٤٢٤).

الزمنية [1]، وكانت وفاة عبد الملك (المُظَفَّر)[2] ابن المنصور العامري فاتحة لفترة مضطربة من تاريخ الأندلس[3] بدأت بعبد الرحمن (شنجول)[4] الذي " **ساء تصرفه وأنفق الأموال في غير وجهها، ونُسِب إليه أباطيل القول والفعل، واستعان بالعسكر للتحرر من نفوذ العامة**[5]، وانتهى الأمر بقتله[6]؛ ففتح على الأندلس باباً لم يُسَد إلا بانهيار الدولة كلها، وكان ذلك إيذاناً ببداية نهاية دولة الإسلام في الأندلس.

كانت تلك الأزمة " **جديرة بأن تشحذ العقول الذكية، وتنتج مفكرين مخلصين يصطبغ تفكيرهم بالمرارة ويحاولون البحث عن علة ذلك الداء الذي أوتى منه بلدهم ومحاولة تكوين مشروع سياسي اقتصادي اجتماعي** "[7]" ومن هنا ظهر هذا الجيل من أبناء قُرْطُبَة من أمثال ابن حَيَّان وابن حَزْم، وابن شُهَيْد[8] ممن حاول كل منهم في ميدان علمه تقصى الحقيقة والبحث عن علاج لمحنة بلدهم [9]، ولذا نلمح في كتابات ابن حَيَّان التاريخية شيوع روح النقد لديه؛ فنراه يعبر عن رأيه وبوضوح؛

---

(١) أحمد مختار العَبّادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. مؤسسة شباب الجامعة، ص ٨٧.

(٢) ت ٣٩٩هـ - ١٠٠٨ م وقيل أنه توفى على إثر ذبحة صدرية، وقيل نتيجة عملية اغتيال، انظر ابن عذارى: البيان المُغْرب، ج٣، ص ٣٧.

(٣) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس. ج٢، الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠١، ص ٦٢٢.

(٤) يعرف فى المراجع العربية بإسم شجنول Sanchuelo سانشويلو، وهو تصغير للفظ سانشو وهو إسم جده لأمه، أى سانشو الصغير، أنظر حاشية: مختار العَبّادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٥) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامى. مكتبة مدبولى، ط ٣، ١٩٨٨، ص ٥٣٦.

(٦) قُتل سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م.

(٧) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٦.

(٨) راجع ترجمته فى، جذوة المقتبس: ص ١٣٣ - ١٣٦، ترجمة رقم ٢٣٢، بغية الملتمس: ص ١٩١ ترجمة رقم ٤٤٠، المطمح: ١٦، والمطرب: ١٤٧. واليتيمة ٢: ٣٥ ومعجم الأدباء ٢: ٢١٨ وأعتاب الكُتّاب: ٢٠٣ وابن خلكان ١: ١١٦ والمغرب ١: ٧٨ والخريدة ٢: ٥٥٥ والوافى ٧: ١٤٤ والمسالك ١١: ٢٠٦.

(٩) فى تناول تلك الرؤية استفاض كلا من الدكتور محمود إسماعيل فى كتابه " أشكالية المنهج فى دراسة التاريخ " والدكتور محمود مكي في مقدمة نشرته للمقتبس.

ففي أيام دولة الخليفة " **سليمان المستعين** " [1]، وبداية " **الفتنة البربرية** " يذكر أنها كانت: " **شِداداً نَكِدات صعاباً مَشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المُنْتَهَى، والخاتمة...** "[2].

ويشير ابن حَيَّان في نصوصه إلى النهب الذي حدث بقُرْطُبَة، واجتياح التدمير بلا حساب أحياءها، وهو ما كان له أبلغ الأثر في تكوين فكره السياسي، وانعكس ذلك على كتاباته التي اتسمت بالحدة والحزن فقد كان يعتقد بأن الأندلس ينبغي أن تحتل مكان الصدارة في العالم الإسلامي، وتشيع هذه الروح في كل كتاباته [3].

وقد زاد من اضطراب الأوضاع في الأندلس - لاسيما قُرْطُبَة - اقتحام البَرْبَر[4] لها [5]، ونَشْر الدمار بها، ودفعت قُرْطُبَة ثمن مقاومتها أنهاراً من الدماء، وقتل الكثير

---

(١) للمزيد عن شخصية سليمان المستعين، راجع، ابن بَسَّام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة. ج١، تحقيق سالم مصطفى البدرى، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨، ص ٢٢، نقلاً عن ابن حَيَّان، = ابن الأَبَّار: الحُلة السِّيَراء ، ج٢، ص ٥، ابن عذارى: البيان، ج٣، ص ٥١، والضَّبىّ: بغية، ص ٣٠.

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٢١.

(٣) محمود مكى: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس، الشطر الثانى، ط ١، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٧٣ م، ص ١١١ - ١١٢.

(٤) يقصد بالبربر الجماعات التى أقامت منذ أحقاب بعيدة في الشمال الأفريقى من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً، ويرى الحسن الوزان أن الكلمة مشتقة من الفعل العربى بربر أى همس، أو أنها مشتقة من الأصل الموطن الذي سكنه البربر وهى صحراء بر، وينسب السلاوى كلمة بربر إلى بر بن قيس بينما، ويرجع ابن خلدون الكلمة إلى كثرة بربرتهم، والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ويرجعهم البعض الآخر إلى لفظ بربروس وتعنى الرافضة للحضارة الرومانية. وقد عاش البربر على شكل جماعات وبعضهم عاش داخل المدن واختلطوا بمن احتل البلاد كالرومان والوندال وغيرهم والغالبية عاشت على شكل قبائل وجماعات واتخذت من سهول وجبال المنطقة موطنا وسكناً، راجع، الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجى وآخرون، الرباط، لدور النشرالمتحدة، ج١، ١٩٨٠، ص ٣٠، الموسوعة الإسلامية العامة،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص ٢٧٥.

(٥) في ٢٦ شوال ٤٠٣هـ/ ٩ مايو ١٠١٣ م.

من أهلها[1]، ودخلت البلاد بعدها في سلسلة من الأحداث[2] واضطربت الأوضاع، واستمرت النزاعات التي شارك فيها البربر والصقالبة[3] وأهل قُرْطُبَة أنفسهم، الأمر الذي جعل ابن حَيَّان يكن للبربر كراهية شديدة تشيع على ظاهر صفحات تاريخه، فهو يندد بقسوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية، ورغبتهم في نقض بناء الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة يتهيأ لهم فيها ذلك[4] وقد تتبع ابن حَيَّان تلك الأحداث وفى تفصيل دقيق.

وانتهت هذه المرحلة في سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م، حين أجمع أهل قُرْطُبَة برئاسة

---

(١) فقد قُتِل سعيد بن منذر، خطيب المسجد الجامع منذ أيام الحكم المستنصر (1) (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ / ٩٦١ – ٩٧٦ م) ، وقتل ابن الفَرَضى صاحب تاريخ علماء الأندلس، راجع الطاهر أحمد مكى: دراسات عن ابن حزم. ط ٤، دار المعارف ١٩٩٣، ص ١٠٣. و:

Joseph Mccabe: The Splendour of Moorish Spain London 1953. P. 121.

(٢) حيث توالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بنى حمود، هم الناصر والقاسم والمعتلى، وثلاثة من بنى أمية، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفى.

(٣) كان الجغرافيون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخرز بين القسطنطنية وبلاد البلغار ثم اكتسب اللفظ مدلولا خاصا فى أسبانيا الإسلامية فصار يطلق أولا على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون فى أيدى الجرمان ويباعون للمسلمين فى شبه الجزيرة وكان لفظ الصقلبى ينسحب فى عصر الرحالة ابن حوقل فى القرن العاشر على الرقيق الذين من أصل أجنبى سواء فى ذلك من كانوا من بلاد أوروبا أو من أسبانيا ذاتها وكانوا ينخرطون فى سلك الجندية أو يتخذون لخدمة الحرم فى القصور فقد كانوا يخصونهم وكان لتجار اليهود على خد تعبير المستشرق الهولندى دوزى معامل للخصى أهمها معمل فردن فى فرنسا فكانوا بعد خصيهم يجلبون الى الأندلس ويباعون فيها وينشئون تنشئه خاصة فيتعلمون العربية وفنون الفروسية ويتأدبون بآداب المجتمع الأندلسى.وازداد عددهم زيادة كبيرة بحيث بلغوا فى عهد الناصر لدين الله بقُرْطُبَة ١٣٧٥٠ وفكت رقاب كثير منهم و سمعت منزلهم فى المجتمع فأثروا وملكوا الأراضى واتخذوا الحشم والعبيد.ونبغت طائفة منهم فى العلم والأدب فكان منهم الشعراء والكتاب.وعظم شأنهم فى أيام الناصر فتولوا المناصب الهامة وقيادة الجيوش ولم يترددالناصر فى أن يعهدالى نجدة الصقلبى بقيادة الجيش الذى وجهه الى ملك ليون فى سنة ٣٢٧. واستكثر منهم الحكم المستنصر فاشتدت شوكتهم وكان لفائق وجُؤذُر دور هام فى عهده وفى عهد ابنه هشام .راجع، ياقوت: معجم البلدان مادة (صقالبة)، المقرى: نفح الطيب ١/ ٨٨، ٩٢، ٢/ ٥٧، تكملة الصلة ابن الأبّار طبعة كوديرا رقم ٨٩.

(٤) محمود مكي: مقدمة، الشطر الثاني، نفسه، ص ١١٤.

الوزير **أبو الحَزْم بن جَهْوَر** على رد الأمر إلى بني أُمَيّة [١]، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر[٢]، وتلقب بالمستظهر [٣]. وبعد ذلك خرج عليه، محمد بن عبد الملك (المُسْتَكْفي) سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م، ويذكر ابن حَيَّان عن الخليفة المستكفى قوله: **" ولم يكن هذا المستكفى من هذا الأمر في وِرْدٍ ولا صَدَر، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قُرْطُبَة محنة وبلية "** [٤]، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على متابعة ابن حَيَّان للأحداث ورصدها بصورة شبه يومية وبطريقة ناقدة، كما سيتضح في الفصول القادمة.

ونتيجة لتلك الأحداث تقلصت بالضرورة قوة السُلطة في الداخل[5]، وهو ما انعكس أيضاً على فكر ابن حَيَّان؛ فحاول مثل غيره من المؤرخين النابهين من أمثال ابن حَزْم أن يعمل على تحقيق وحدة الأندلس وتقوية سلطة الخلافة من جديد[6]؛ فنراه يعتد **"بالجماعة"** أو وحدة الأندلس؛ ولذا كان يستخدم كلمة الجماعة مراراً وتكراراً فيقول: **" سلطان الجماعة "** و**" إمام الجماعة "** و**"أمير الجماعة "**[7].

وبينما كان البناء السياسي للأندلس يتصدع شيئاً فشيئاً أثناء فترة الصراع على الخلافة بين من ادعاها من أفراد البيت الأُمَوي ومن أعقبوهم من بني حَمّود[٨]، انهار

---

(١) عبادة كحيلة: القطوف الدوانى فى التاريخ الإسبانى، القاهرة ١٩٩٨ م، ص ١٠٩.

(٢) فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ.

(٣) الحُمَيْدى: جذوة، ص ٢٧، الضَّبىّ: بغية، ص ٣٤، المراكشى: المعجب، ص ٥٧، ابن حزم: نَقْط العروس، ص ٥٦، وعنان: دولة الإسلام، ج ٢، ص ٦٦٨.

(4) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج ١، ص ٢٧١.

(٥) سوسيولوجيا، مرجع سابق، ص ٥٣٤.

(٦) إشكالية المنهج، ص ١٦.

(٧) للمزيد راجع: المقتبس (انطونيا)، ص ٦٧، ١٣٣، ١٣٤.

(٨) بنو حمّود: من ملوك الطوائف فى الأندلس. وقد سُمّيت على اسم مؤسسها حمّود، من نسل إدريس بن عبد الله، أى أنهم من الأدارسة. بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية، إلا أنهم كانوا ينتمون فى الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير، إلى البربر، وتوالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بنى حمود، هم الناصر والقاسم والمعتلى، وثلاثة من بنى أمية، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفى، وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء، راجع، ابن بسام، تحقيق سالم البدرى، ج ١، ص ٦٠، نقلا عن ابن حيان، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، ص ٤٣ – ٤٤، الحميدى: جذوة المقتبس، ص ٢٢، ابن عذارى: البيان، ج٣ ، ص ١٢٢، عنان: دولة الإسلام، جـ ٢، ص٦٥٧.

البناء السياسي جملة، وضاعت الوحدة، وتفرق أمر الجماعة[1] ، وفي تلك الأثناء اجتمع شيوخ قُرْطُبَة والوزراء برئاسة أبي الحزم بن جَهْوَر، واتفقوا على خلع المُعْتَد بالله – آخر خلفاء بني أُمَيّة –، **وإبطال رسم الخلافة جملة**[2]، ونودي في الأسواق والأرباض؛ ألا يبقى بقُرْطُبَة أحد من بني أُمَيّة، وألا يكنفهم أحد من أهل المدينة، وانتهى بذلك أمر بني أُمَيّة في الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم [3]، وأثرت تلك الواقعة تأثيرا بالغاً في فكر ابن حَيَّان، وجعلته يتابع مصير دويلات الطوائف، ويرصد العديد من الوقائع، وركز على انفراط وحدة الأندلس وتفرق ملكها إلى دويلات طائفية[4]، واقتسامهم ألقاب الخلافة؛ فوصفهم ابن حَيَّان بأنهم: **" أُمراء الفرقة الهمل[5] الذين هم ما بين فشل وَوَكَل "** [6].

أما في قُرْطُبَة فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة ، وأسندوا الأمر إلى ابن جَهْوَر، وكان مشهوراً عندهم بجدارته وكفاءته لتقلد هذا المنصب[7]، وابتكر لأهل قُرْطُبَة نظاماً جديداً للحكم قائماً على الشورى، ورأى ابن حَيَّان أنه لم يستبد بالسلطة كما استبد غيره من ملوك الطوائف، وإنما كون مجلساً للحكم من شيوخ أهل قُرْطُبَة

---

(١) حُسَين مؤنس: شيوخ العصر فى الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥ م، ص ٨٠.

(٢) راجع، الحُمَيِّدى: الجذوة، ص ٢٨، والضَّبىّ: بغية، ص ٣٤، ابن عذارى: البيان، ج٣، ص ١٤٦، ابن الخطيب: أعمال، ص ١٣٨.

(٣) سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، ص ٣٦٣.

(٤) ونوجز المسألة فيما يلى: قُرْطُبَة: يحكمها بنو جَهْوَر (٤٢٣ هـ – ٤٦٠ هـ)، إشبيلِيّة: بنو عباد (٤١٤ – ٤٨٤ هـ)، غَرْناطة: بنو زيرى (٤٠٣ – ٤٨٣ هـ)، طُلَيطِلَةُ: بنو ذى النون (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ)، بَلَنْسِية: العامريون، (٤١٢ – ٤٧٨ هـ)، سَرَقُسْطة: بنو هود (٤١٠ – ٥٢٦ هـ)، راجع،.

(٥) الهمل: المتكاسلون المتوانون، راجع هامش الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١١٧.

(٦) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١١٧.

(٧) دوزى: ملوك الطوائف. ترجمة كامل كيلانى، ط ١، مكتبة عيسى الحلبى ١٩٣٣، ص ١٠، ١١، وينتمى ابن جَهْوَر إلى بيت من أعرق بيوتات الموالى الأندلسية وهو أبو الحَزْم بن محمد بن عبيد الله بن أحمد بن محمد من أهل بيت ووزراء.وسوف يحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهورى، راجع، عبدالحميد العَبّادى: المجمل فى تاريخ الأندلس. ط ٢، دار القلم ١٩٦٤، ص ١٤٠ .وللمزيد، راجع، ابن الأَبّار: الحُلة السِّيَراء ، ج١، ص ٢٤٤، والضَّبىّ: بغية، ص ٥٤، ابن بَشْكُوَال: الصلة، ص ١٣١، وخالد الصوفي: جمهورية بني جَهْوَر، دمشق ١٩٥٩، ص ٤٦.

وانتخب أميناً لهذا المجلس، **وكان لا يصرف أمراً إلا بعد الرجوع إلى جماعة الشيوخ هؤلاء** [1]، وكان من جرَّاء ذلك أن اختار ابن حَيَّان المقام في قُرْطُبَة في ظل الجَهاوِرَة لأنهم في نظره خير بيئة يستطيع فيها أن يسجل أحداث عصره، وفيها استطاع أن يعبر عن سلبيات المجتمع الأندلسي خاصة بعد تمزق الأندلس على هذا النحو، وقد انتقد ملوك الطوائف فى عصره خاصة في تربص بعضهم لبعض، واستعانتهم بالنصارى لتنفيذ مخططاتهم وهو ما سيضح لنا عند الحديث عن الموضوعية في كتاباته.

وبصفة عامة يمكن القول أن " **الانتكاسات التاريخية في حياة الشعوب ليست شراً مستطيراً على طول الخط؛ بل قد تسفر عن ايجابيات بصدد الفكر وتطوره، إذ غالباً ما تفضي إلى استنفار النخبة المفكرة لاستقراء أسباب وعلل تلك الانتكاسات** " [2].

وعلى الصعيد الاقتصادي وبعد انهيار وسقوط الخلافة حدثت الانتكاسة وعم الكساد الاقتصادي[3] وتدهور العمران، وحفل العصر بالأزمات إلى حد المجاعة وأفل نجم قُرْطُبَة عمرانياً وبشرياً، وصور ابن حَيَّان الوضع قائلاً: "... **وطمست أعلام قصر الزهراء**[4].... **فطوى بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها، إذ كانت جنة**

---

(١) راجع، الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٣٧٤ حيث يقول " **فعجب ذوو التحصيل للذى أراه الله فى صلاح الناس من القوة، ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقو جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون** ".

(٢) راجع، اشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ٣٨.

(3)Miguel Asin Palacios: " Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm. Al-Andalus, 1934, 1, p, vol. 2 (1934) p. 40.

(٤) الزهراء Medina Zahra: ممدود تأنيث الأزهر وهو الأبيض المشرق والمؤنثة زهراءُ والأزهر النير ومنه سمى القمر الأزهر، تقع شمال غرب مدينة قُرْطُبَة، وعلى بعد حوالى ستة أميال، وقد شرع الخليفة عبدالرحمن الناصر فى بنائها فى شهر المحرم سنة ٣٢٥ هـ؛ حيث عهد إلى ابنه الحكم بالإشراف على البناء، وقد استمر البناء إلى عهد الحكم، لكن الزهراء لم تعمر طويلا؛ حيث إنه لما تغلب المنصور ابن أبى عامر على السلطة نقل قاعدة الحكم منها إلى الزاهرة وقد قام البربر بتخريبها أثناء الفتنة البربرية. (ابن غالب: فرحة الأنفس ص٣١ ـ ٣٤، الحِمْيَرى: الروض المعطار ص ٢٨ ـ ٣٢ ، المقرى: نفح الطيب ج٢ ص٦٥ ـ ٦٧، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين ص ٤٠٧ ـ ٤١١).

الأرض، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك، وأوهن بنية من بعوضة النمروذ، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت "[1].

وتحولت المدن التجارية المزدهرة إلى قلاع وحصون عسكرية[2] الأمر الذي لقي تنديد ابن حَيَّان، ويشيع ذلك في صفحات كتابه " المتين " ومثال على ذلك ما أشار إليه في فطنة بالغة عن سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة الوضع المتردي في بمدينة بَطَلْيَوْس[3] نتيجة النزاع بين المعتضِد بن عَبَّاد والأَفْطَس؛ فقال: " **بقيت بَطَلْيَوْس مدةً خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عَبَّاد هذه بفتيان أغمارٍ إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذ. فاستدللت بذلك على فشو المصيبة** [4]؛ فتوقع برؤية ثاقبة عما سيحل بعد ذلك من كوارث اقتصادية.

وانتشرت في الأندلس " **الكُوَر المجندة** "[5] نتيجة لكثرة الحروب الأهلية، فنزل جند دمشق في كورة إلْبِيرَة[6].

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) أحمد بدر: تاريخ الأندلس فى القرن الرابع الهجرى، دمشق : [د.ن]، ١٩٧٤ م، ص ٢٤٢.

(٣) بَطَلْيَوْس Badajoz: بفتحتين وسكون اللام وياء مضمومة و مهملة، مدينة أندلسية من إقليم ماردَة، بينهما أربعون ميلاً، بناها الأمير عبدالله على يد عبد الرحمن بن مروان الجليقى وهى تقع غربى قُرْطُبَة، راجع، ياقوت الحموى: معجم البلدان: ج١، ص ٤٤٧، أبو بكر الزهرى: كتاب الجغرافية، ص ٨٨ بَطَلْيَوْس: (Bada luz)تقع على نهر وادى يانه شمال شرق مدينة إشبيليّة على بعد ١٨٥ ميلا، بنيت على يد الثائر عبد الرحمن بن مروام الجليقى عام ٢٦١ هـ.(البكرى: المسالك والممالك ج٢ ص٩٠٦ ،: ياقوت: معجم، ج١، ص ٤٤٧)، سحر عبدالعزيز سالم: تاريخ بَطَلْيَوْس الإسلامية، ج١، ص ١٣٧ـ ١٤٠.

(٤) الذخيرة: (تحقيق سالم البدرى)، ج ١، ص ٢٣٩، نقلا عن ابن حَيَّان.

(٥) الكُوَرة: الإقليم أو الصقع أو البقعة يجتمع فيها قرى ومحال، وتحدث الجغرافى العربى المقدسى: عن التقسيمات الادارية فى الأندلس فقال: إن فى الأندلس ثمانى عشرة كورة أورستاق كما فى الشرق (راجع: المقدسى: أحسن التقاسيم ص٢٣٤، ابن الخطيب، الاحاطه، تحقيق محمد عبدالله عنان جـ١ ص١٠٩).

(٦) إلْبِيرَة (Elvira): إلْبِيرَة: الألف فيه ألف قطع وليس بألف وصل فهو بوزن إخريطة وإن شئت بوزن كبريتة وبعضهم يقول بلبيرة وربما قالوا لبيرة. تقع شرق قُرْطُبَة، بنيت مدينتها فى عهد عبد الرحمن الداخل بينها وبين غَرْناطة ستة أميال، وهى كثيرة الأنهار والأشجار والثمار ونزلها جند دمشق، وكانت مدينة إلْبِيرَة قريبة من غَرْناطة، بينهما ستة أميال؛ أما بطرنة فقد عدها ابن سعيد من قرى بَلَنْسِية راجع (راجع: ياقوت: معجم، ج١، ص ٦٤، المقرى: نفح تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، حاشية رقم ٢، ج١، ص ١٣٤.

وجند حَمْص في كورة إشبِيلِيّة[1]، وجند الأردن في كورة مالطة، وجند قِنَّسْرِين في كورة باجة[2]، وبعضهم بكورة تُدْمِير[3]، فهذه منازل العرب الشَّاميين، وبقي العرب والبربر والبلديون شركاءهم، كما تعاظم "إقطاع التجار" نتيجة شرائهم بعض إقطاعات الخلفاء والولاة[4]. وفي ظل هذا الحكم اضطرب الوضع الاقتصادي، واشتد الغلاء، وانتشرت الأوبئة، وعمت الكوارث، وانعدم الاستقرار والأمن[5].

ولجأ الملوك من أجل إرضاء نزواتهم وتحقيق لذاتهم إلى إثقال كاهل رعاياهم بالضرائب[6]؛ فانعكس ذلك الوضع على كتابات ابن حَيَّان فوصف ذلك الوضع المتردي في مرارة واضحة بقوله " **فما أقول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح**

---

(١) إشبِيلِيّة Sevilla: إشبِيلِيّة: بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة. م، وتقع مدينة إشبِيلِيّة في الأندلس، كانت على جانب من الأهمية أيام الفينيقيين، اتخذها الرومان عاصمة لمقاطعة بيتيكا، وبنو بجوارها مدينة اتاليكا، تتصل بالمحيط الأطلنطى بنهر الوادي الكبير، فتح المسلمون إشبِيلِيّة فى شعبان ٩٤ هـ/ ٧١٣ م بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهر، وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل وهو أول ولاتها من المسلمين، راجع: ياقوت: معجم، ج١، ص ١٩٥.

(٢) بَاجَة: (Beja)في البرتغال وتقع على بعد ١٤٠ كيلومتراً جنوب شرقى الاشبونة وكانت تضم كورة واسعة.، وقد عاشت مدينة باجة التقلبات العديدة التى طرأت على المنطقة في العصور الوسطى. وقد تلقّفها بنو عباد والمرابطون والمتمرد ابن قسى والموحدون وابن هود وابن محفوظ لتنتهى في العام 1238على يد الأسبان. راجع: ياقوت: معجم، ج١، ص ٣١٤.

(٣) تُدْمِير Tudmir: بالضم ثم السكون وكسر الميم وياء ساكنة وراء: من كور الأندلس، سميت باسم ملكها تُدْمِير وتقع شرقى قُرْطُبَة. (راجع: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ١٩، دائرة المعارف الإسلامية، ج٥، ص ١٦.

(٤) للمزيد راجع، محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، مرجع سابق، وشريف م، م (دراسات في الحضارة الإسلامية) ترجمة أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، القاهرة ١٩٦٦..و طلفاح خير الله (حضارة العرب في الأندلس) دار الحرية بغداد ١٩٧٧.

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسى. تحقيق": إحسان عباس. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر، بيروت ١٩٨١م، ج٣/ ص ١٧٤.

(٦) البيان المُغْرِب: ج٣، ص ١٦٢، الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ٣، ص ٩.

لجميع أغذيتها ؟ هل هى إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء...

أمـور لو تدبرهـا حكـــيم إذن لنهى وهبب ما استطاعا[1]

وعلى الصعيد الاجتماعي شهد المجتمع الأندلسي في ظل الخلافة والحِجابة مرحلة المزج والانصهار بين العرقيات المتنوعة ليحدث نوع من التجانس لم تشهده الأندلس من قبل؛ إلا أن السخائم العرقية والإقليمية عادت مرة أخرى لتؤثر سلبياً في هذا التجانس، ولتمزق وحدة الأندلس من جديد[2] بظهور النزعة العنصرية؛ ولذا لم يغب عن ابن حَيَّان أيضاً أن يعبر عن تلك النزعة في الأندلس في تلك الفترة وذلك من خلال حديثه عن اجتماع خازني بيت المال في عهد الأمير محمد، وهما " عبد الله بن عثمان بن بسيل، ومحمد بن وليد بن غانم " واستدعى الأمر أن يكتب ابن غانم كتاباً قدم نفسه فيه، فما كان من ابن بسيل إلا أن قام له: **" والله لا أطبع كتاباً تتقدمني أنت فيه، وأنا شامي وأنت بلدي "**[3].

ويشير أيضاً إلى الفتنة بين اليمنية والمضرية فقال: **" وكان ابتداء فتنة أهل الجزيرة وانبعاثها بالمعصية بين اليمانية والمضرية أن أطلق بعضهم على بعض الغارات واستحلوا الحرمات وتخلقوا بأخلاق الجاهلية، واتخذوا الحصون والمعاقل المنيعة فارتقوا اليها وأذلوا البسائط "**[4]

وقد كانت هناك طبقة الأُمراء والحكام وذوو الثراء وأصحاب الوظائف الكبرى، وكانوا يمتلكون ثروات طائلة تمثلت في الضياع الواسعة، والقصور الخاصة، وتفننوا في صنوف من البذخ[5]؛ فيصف ابن حيان ثرء أبي الحزم ابن جهور

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ٣، ص ١١٧.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، مرجع سابق ، ص ٧٠.

(٣) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ١٣٧.

(٤) المقتبس (تحقيق أنطونية)، ص ٥٢.

(٥) عادل يحى عبد المنعم: النقد الاجتماعى عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ص ٧٩.

قائلاً " **تضاعفت ثراؤه، وصار لا تقع العين على أغنى منه** "[1]، وقام ابن حيان بتقدير ثروة باديس بأنها تقدر ب " **خمسمائة ألف مثقال جعفرية**[2]، **سوى فضة والآنية والحلية** "[3].

والناظر إلى روايات ابن حَيَّان يجد أن الغالب عليها تصويره مثالب الطبقة الحاكمة، ولم يغب عنه تصرفات الحكام وشغفهم بالبناء إلى حد الإسراف والبذخ ويتضح هذا ـ فيما نقله عن معاوية بن هشام ـ عند ذكره لقيام الأمير محمد بتحسين قصر الخلافة، فيقول: أنه بلغ من تحُسَينه إياه مبلغاً " **تَوَفَّتْ به الكمال، واكتسبت الجمال، فشفيت به أدواء النفوس، وضرب بحسنها المثل** "[4].

كما رصد ابن حَيَّان انحراف الحُجاب والوزراء، واستطاع أن يلقي الضوء حول طبيعة حياة الأمراء من خلال المعايشة، وقد أشار إلى ما أصاب أهل الأندلس من نفاق وقلة وفاء وميل مع من يبقى في المنصب، كما لم يغب عنه أن يصور بعض تجاوزات الولاة وظلمهم. كما صور دور الجواري في بلاط حكام الأندلس، وانتقد ما كان يقمن به من دسائس وهذه الرؤية النقدية ما كانت لتحدث لولا ظروف عصره التي دفعته إلى ذكر ما وصل إليه حال الأندلس من انقسام وتفكك[5].

ونراه لا يغفل الإشارة إلى حال " **مشيخة الشورى** " أواخر عهد الخلافة الأُمَوية بالأندلس، ويتضح هذا عند حديثه عن الخليفة هشام المُعْتَد الذي يقول عنه: " **وزاد فى رزق مشيخة الشورى من مال العين، ففرض لكل واحد خمسة عشر**

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ١، ص ٣٧٤.

(٢) المثقال الجعفرية: يعرف جارثيا جومز المثقال الجعفري بأنها نقود نقش عليها اسم أبو جعفر بن سليمان بن هود المقتدر، ملك سرقسطة، للمزيد راجع، محمد الشريف: المغرب والأندلس، دراسات في التاريخ والأركيولوجية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، ط١، ٢٠٠٦ م، ص ٥٤.

(٣) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ١، ص ٤١٤.

(٤) المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ٢٢٧.

(٥) راجع، عادل عبد المنعم: النقد الاجتماعي مرجع سابق، ص ٩٥.

ديناراً مشاهرة، فقبلوا ذلك على خبث أصله، وتساهلوا فى أكل ما لم يستطبه فقيه قبلهم "[١].

وكانت هناك طبقة أخرى تعاني ألوان العسف والتنكيل، ويطلق عليهم لقب العوام وهم الفئة المهمشة في التاريخ[٢] ولا يأتي ذكرهم في الغالب الا عند التأريخ للكوارث كالمجاعات والأوبئة، أو من خلال ذكر حركات المعارضة التي جري تهميشها بالمثل ودمغها بأبشع التهم والنعوت[٣]. وتتكون هذه الطبقة من الفلاحين في الريف والحرفيين والعمال في المدن[٤] وأغلبها من البربر أو المولدين[٥]، أو الموالي[٦]، وكان على هذه الطبقة أن تتحمل أعباء ضرائب باهظة كانت تُفرَض عليها وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة[٧]. وكان لهذا التدني أثره على ابن حَيَّان في معارضته لهذه المظاهر في كتبه وتنديده بفاعليها[٨]، ويقول واصفاً أحد هؤلاء المغالين في جمع الضرائب: **" ونعي إلينا فلان، وكان فظاً قاسياً ظنيناً جشعاً جباراً مستكبراً قليل الرحمة نزر الإسعاف زاهداً في اصطناع المعروف، أحد الجبابرة القاسطين على الرعية، المجترين على رد أحكام الشريعة وكان**

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ٣، ص ٣٢٥، والسلة: السرقة الخفية.

(٢) لمزيد من التفاصيل، راجع، محمود إسماعيل: المهمشون في التاريخ الإسلامى، دار رؤية، ٢٠٠٤.

(٣) نفسه، ص ١٤.

(٤) نفسه، ص ٥٣.

(٥) أطلق على من أسلم من أهل الأندلس لحظة الفتح اسم " المسالمة "، وعلى أبنائهم اسم " المولّدون" الطاهر مكى: دراسات عن ابن حزم، مرجع سابق، ص ١٦.

(٦) الموالى في الأندلس هى: طبقة تتألف غالبيتها من العبيد الذين أعتقهم مالكوهم أثناء حياتهم أو بعد موتهم بموجب وصية، ويسمى الشخص المحرر مولى، وكان يظل مرتبطاً بمالكه القديم أو بورثته بما يشبه الرباط العائلى الذي يلزمه بواجبات معينة نظير استفادته بالحماية المعنوية أما الاصطناع فقد كان يوجد في المجتمع الأندلسى، أنظر، ليفى بروفنسال: اسبانيا الإسلامية، ج١ ص ١٨٨.

(٧) راجع، عز الدين أحمد: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامى، دار الشروق، ط١، ١٩٨٣ م

(٨) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ٤، ص ١٤٦.

مهلكه – زعموا – من طاعونة طلعت عليه ببعض أطرافه، فتجاسر على قطعها بفرط جهالته، فمات معذباً في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد[1].

أما الحالة الثقافية فالعجيب أنه وعلى النقيض من الوضع السياسي؛ لم تكن الثقافة الأندلسية يوماً أشد إشعاعاً، وأقوى خصوبة كما كانت عليه في تلك الفترة ففي الغالب تكون الأزمة "تحدياً" يوجب " الاستجابة " – حسب مفهوم " أرنولد توينبي" –، وغالباً ما تناط النخبة المفكرة بريادة الاستجابة على الصعيد المعرفي [2].

ويجمع الدارسون على ازدهار الحركة الثقافية في عصر ملوك الطوائف وذلك راجع إلى تداعيات وظلال العصر السابق، بما يؤكد أن الظواهر الفكرية في تطورها وفي أفولها تحتاج إلى فترة زمنية طويلة [3].

هذا وقد مجد الأندلسيون العلماء والفقهاء ورجال الأدب، وكان لهؤلاء القيادة والريادة في المجتمع الأندلسي أما العلماء فقل من تجده متبحراً في علم واحد أو علمين؛ بل فيهم من يعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين[4] ولم يقتصروا على العلوم النظرية بل كانت لهم دراسات في علوم عملية[5] كالفيزياء، وعلم العقاقير، والزراعة (علم الفلاحة) والذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم في النباتات والتربة[6].

وهذا التعدد المعرفي لعب دوراً مهماً في إثراء فكر ابن حَيَّان خاصة وأنه كان مكثرا من الاطلاع على تلك الكتب، وسهلت له تلك النهضة العلمية الاطلاع على

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٣٦٦، نقلا عن ابن حَيَّان.

(٢) راجع، إشكالية المنهج فى دراسة التراث، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٣) محمود إسماعيل، و آمال محمد حسن: فى تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، بدون، ص ١٥٧.

(٤) مصطفى صادق الرافعى: تاريخ آداب العرب. ج٣، مطبعة الاستقامة، ط١، ١٩٤٠، ص ٣٣١.

(٥) الشكعة: الأدب الأندلسى، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٣، ص ٧١.

(٦) راجع، ابن بَصَّال : كتاب الفلاحة، ص١١ – ٣٦.

تاريخ الممالك النصرانية أيضاً، مما يرجح أنه كان يعرف عجمية الأندلس وأن " ما أورده ابن حَيَّان من أخبار عن إسبانيا[1] النصرانية ينم عن معرفته الدقيقة بكل أحوالها وأنساب حكامها [٢].

وكان لكثرة مطالعاته التاريخية أن تجنب الروايات الخرافية والأسطورية ولم يشع ذلك في كتاباته؛ مما كون وعى تاريخى ناقد لديه ومكنه من أن يصور ما وُجد فى البلاط الأندلسي من دسائس وفتن بين الحجاب والوزراء تصويراً نقدياً لا يعتمد على القص فقط.

والخلاصة أن الفكر التاريخي قد اذدهر إبان تلك الحقبة التي شهدت " القرن الذهبي" في تاريخ الفكر الإسلامي[٣] وخير نموذج هو حامل لواء التاريخ في الأندلس " ابن حَيَّان القرطبي ".

النشأة والتكوين

عاش ابن حَيَّان[4] في محيط بلاط الخليفة وقصر الحاجب العامري وكان من

---

(١) لفظة إسبانيا (Hispania) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبرية، وبعضهم يرده إلى أصل فينيقى معناه " ساحل الأرانب البرية " ثم قيل إن ذلك نسبة إلى اشبان (Sphan) وتحرفت الكلمة إلى أصبهان، ومن صيغ الاسم أيضاً (Hispalia) وعرب إلى إشبيليّة. راجع، المقرى: نفح، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، حاشية رقم ٢، ج١، ص ١٣٤.

(٢) عبد المحسن طه رمضان: الحروب الصليبية فى الأندلس. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠١م ، ص ٤٠.

(٣) نفسه، ص ١٤.

(٤) ابن حَيَّان: هو حيان بن خلف بن حُسَين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، كنيته أبو مروان، ذكرابن بَشْكُوَال فى كتابه الصلة أنه قرأ أسمه وولاءه هذا بخطه، ولد فى قُرْطُبَة سنة (٣٧٧ هـ ـ ٩٨٨م) وتوفى بها يوم الأحد ٢٨ ربيع الأول سنة ٤٦٩ هـ (٣٠ أكتوبر سنة ١٠٧٦ م)، وما وصل إلينا من أخباره قليلاً لا يتناسب مع هذه المكانة العالية التى اعترف بها لابن حَيَّان أهل عصره، ولم يترجم لنفسه كما فعل بعض المؤرخين قبله وبعده.أنظر فى ابن حَيَّان وترجمته: ابن بَشْكُوَال، الصلة، ج١، ص ١٥٣، ترجمة رقم ٣٤٥، ابن بَسَّام، الذخيرة ١/ ٥٧٣، الحُمَيِّدى، جذوة المقتبس ٢٠٠ رقم ٣٩٧، الضَّبىّ، بغية المتلمس ٢٧٥ رقم ٦٧٩، الزركلى، الأعلام، ٢/ ٣٢٨، كحالة، معجم المؤلفين، ٤/ ٨٨. وقد كتب عنه ملشور انطونية رسالة بعنوان Ibn Hayyan de Cordoba y sa Historia de la Espana musulmana ضمن دفاتر إسبانيا، المجلد الرابع، بونس آيرس ١٩٤٦ ص ٥ - ٧٢)؛ وغرسيه غومس بحث صغير عنه في مجلة الأندلس (المجلد ١١، ١٩٤٦) .

أسرة أسبانية قديمة[1] ناصرت الأمير الأُمَوي عبد الرحمن الداخل [2]؛ فقد كان جده الأعلى حيان مولى[3] للأمير عبد الرحمن واستمرت الصلة مع أبنائه من بعده، ولعل هذا ما يفسر لنا تعصبه الشديد لبني أُمَيّة وتسفيه خصومهم في الداخل والخارج ونعتهم بأقبح الصفات والنعوت فيصفهم " **بالفسقة** "[4]، و"**السِفلة** "[5]، و" **السفهاء المسارعين إلى الشر** " [6] وأنهم "**لا عهد لهم ولا عقد**"[7]؛ بل أن "**جهادهم عند أهل السنة أولى من جهاد الروم** "[8].

هذا وقد تلقى ابن حَيَّان مستوى التعليم المتاح لأبناء طبقته [9]؛ فدرس القرآن الكريم والتفسير والحديث الشريف والفقه [10]، وتلقى أخباراً ومعلومات تاريخية كثيرة في بلاط الوزراء والأمراء، وأقبل على دراسة التاريخ بنهم بالغ بدليل أنه لم يكتب في أي فرع آخر من فروع الثقافة[11]، ومن المؤكد أنه تلقى المعلومات الأساسية لآداب الكتاب، كما ساعد على إذكاء ملكة الكتابة لديه نشأته في مدينة

---

(١) وهى أسرة يمكن إدراجها اجتماعيا ضمن شرائح الطبقة الوسطى. ومعلوم أن هذه الطبقة اشتهرت بالعلم والثقافة، فجمع أفراد أسرة ابن حَيَّان بين العلوم الدينية والعقلية التى ازدهرت فى الأندلس آنذاك، راجع، محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، ص ٩٦.

(٢) محمود مكى: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس، الشطر الثانى، مرجع سابق، ص ٩.

(٣) الموالى فى الأندلس هى: طبقة تتألف غالبيتها من العبيد الذين أعتقهم مالكوهم أثناء حياتهم أو بعد موتهم بموجب وصية، ويسمى الشخص المحرر مولى، وكان يظل مرتبطاً بمالكه القديم أو بورثته بما يشبه الرباط = العائلى الذى يلزمه بواجبات معينة نظير استفادته بالحماية المعنوية أما الاصطناع فقد كان يوجد فى المجتمع الأندلسى، أنظر، ليفى بروفنسال: إسبانيا الإسلامية، ج١ ص ١٨٨.

(٤) المقتبس، الشطر الأول ، ص ١٤٣.

(٥) المصدر والصفحة نفسيهما.

(٦) نفسه، ص ١٧٠.

(٧) المقتبس (تحقيق شالميتا)، ص ٣٧٣ .

(٨) المصدر والصفحة نفسيهما .

(٩) وكان ابن حَيَّان على ما يبدو هو ولد خلف الوحيد، فنحن لا نسمع فيما كتبه بأى إشارة إلى إخوة له، فأفرغ فيه كل اهتمامه.

(١٠) مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس، آفاق إسلامية وحضارة إنسانية، ط١، دار العلم للملايين ١٩٨٧، ص ٣٥٣.

(١١) خوليان ريبيرا: التربية الاسلامية في الأندلس، ط٢، ترجمة الطاهر مكي، ١٩٩٤ م ص ٦٤.

قُرْطُبَة التي كانت قد بلغت درجة رفيعة من الحضارة في ذلك العهد [1] ويكفي لبيان ذلك أن نشير إلى تقدم أهل الأندلس في العلوم المختلفة من أدب وفنون وفلك ورياضة وطب وكيمياء، الخ[2] حتى لقد أصبح اسم قُرْطُبَة في حد ذاته يقترن بالعلم والعلماء[3].

أما والده[4] خلف بن حُسَين فكان كاتباً ووزيراً مقرباً للعامريين وقريباً من مراكز القوة والنفوذ، وتوثقت علاقته بالمنصور بن أبى عامر توثقاً تشهد به

---

(١) حُسَين مؤنس: قُرْطُبَة، درة مدن أوروبا فى العصور الوسطى. مجلة العربى، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦ ص ٨٥.

(٢) سالم: تاريخ المسلمين، مرجع سابق، ص ٣١٧.

(٣) وفي ذلك يقول الشاعر:

بأربع فاقت الأمصار قُرْطُبَة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شئ وهو رابعها .

راجم، نفح، ج١،ص ١٥٣، ودائرة معارف الشعب: عدد رقم ٦١، مطابع الشعب، ١٩٥٩، ص ١٧

وقال ابن سفر المرينى:

وليس فى غيرها بالعيش منتفع
ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وكيف لا يذهب الأبصار رونقها
وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة، والمسك تربتها
والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به
من لا يرق وتبدو منه أهواء

(نقلا عن: محمود أحمد الحفنى: زرْياب. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ٩٦).

(٤) هو:خلف بن حُسَين بن مروان (٣٤٠ - ٤٢٧هـ - ٩٥١ - ١٠٣٦م): من أهل قُرْطُبَة، يُكْنَى: أبا القاسم. قرأ القرآن الكريم على أبى الحسن الأنطاكى مع أبى مروان الجزيرى الوزير وطبقته، وكتب للمنصور وصحبه فى مغازيه. وكان: ماهراً فى الحساب، بصيراً بالمساحة، محمود الطريقة. أخبر عنه ابنه بحكايات وقال: توفى سنة سبعة وعشرين وأربعمائة وكان سنه ثمانية وثمانين عاماً، راجع، ابن الأَبَّار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار الحُسَينى، طبع القاهرة، ١٩٥٥ م، ج١، ص ٢٩٥، ترجمة رقم ٨٠١.

الحكايات الكثيرة التي رواها ابن حَيَّان وضمنها تأريخه للدولة العامرية، وكان يلازم المنصور في كل حملاته العسكرية التي وجهها إلى الممالك النصرانية في الشمال مما كان له أبلغ الأثر على توجهات ابن حَيَّان التاريخية، فكان أحد المصادر الهامة له أثناء كتاباته عن تلك الفترة، وروى عنه حكايات كثيرة، منها على سبيل المثال: ما نقله لنا **ابن الخطيب** فى كتابه " **أعمال الأعلام** " وصفاً دقيقاً لموقعة جربيرة (cervera) كان مما رواه ابن حَيَّان على لسان أبيه[1].

وقد نقل لنا أيضاً على لسان أبيه وصفه للمنصور وهو على فراش الموت، ووصيته لابنه عبد الملك [2]، وهذه الوصية وثيقة تاريخية سياسية مهمة، إذ نجد فيها تسجيلاً لسياسة المنصور وخلاصة لأعماله، وهى تكاد أن تكون حساباً ختامياً يقدمه الرجل للتاريخ ونصيحة لابنه ورسم للسياسة التي ينبغي أن يتبعها في الداخل والخارج[3]، كما نقل عنه أيضاً قصة مصرع عبد الملك بن إدريس الجزيري ، وصور لنا مدى قصر نظر ابن الجزيري، وتورطه في الدسائس والمؤامرات السياسية مما أدى به إلى الوقوع في نكبة عبد الملك المُظَفَّر؛ فأودع سجن المطبق بالزاهرة، ويقص علينا ابن حَيَّان بكل تفاصيل خبر المؤامرة التي انتهت بمصرع ابن الجزيري الفاجع نقلا عن أبيه خلف بن حُسَين، ويختم الخبر بقوله: " **أخبرني أبي خلف بن حُسَين قال: سألت الذي تولى قتل ابن الجزيري في محبسه، فجعل يصف لي سهولة ما**

---

(١) دارت هذه المعركة في ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠هـ (٣٠يولية سنة ١٠٠٠ م)، وفيها تحالفت كل قوى نصارى الشمال من أجل الصمود في وجه المسلمين، والتقى الفريقان عند مكان شديد الوعورة يسمى بـ "صخرة جربيرة"، وكاد المنصور أن يُهزم لأول مرة في معاركه، ولكن بسالة المسلمين وشدة بأسهم في القتال أنهت المعركة بهزيمة مروعة للتحالف النصراني، وقتل معظم قادتهم، وواصل المنصور سيره حتى فتح مدينة "برغش" عاصمة قشتالة، ثم واصل سيره إلى "سرقسطة" وقام من هناك بغزوة في أراضي "نافار" وكل ذلك دون أن يجرؤ أحد على الوقوف في سبيله، ثم عاد إلى قرطبة، وقد أنفق في هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام، راجع، أعمال الأعلام، مرجع سابق، ص ٧٠ - ٧٣.

(٢) للاطلاع على نصوص هذه الوثيقة راجع، الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٤، ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) محمود مكي: مقدمة المقتبس،، الشطر الثاني، ص ١٤.

عاناه منه لقضافته(1) وضعف أسره ويقول: ما كان الشقي إلا كالفروج في يدي، دققت رقبته بركبتي، فما زاد أن نفخ في وجهي، فعجبت من جهل هذا الأسود "[2] ؛ فكان أبيه بذلك موجهه الأول إلى كتابة التاريخ، لأن تتبع الأخبار التي نقلها ابن حَيَّان عن أبيه تؤكد أنه كان يغرس فيه الاهتمام بتقصي الحقيقة والبحث عنها.

ولا شك أن والده قد أمده كذلك بالكثير من الوثائق التي كانت تحت يديه حيث استمرت مكانته ومنزلته زمن الحاجب عبد الملك المُظَفَّر، بدليل أن ابن حَيَّان نقل عنه بعض أخبار الأحداث الواقعة في هذه الفترة، كما يدل على أن والده قد تعهده تعهداً شخصياً فنجد في أكثر الصفحات التي كتبها ابن حَيَّان عبارة " **حدثني أبي خلف بن حُسَين**"[3]. وحينما أشرف والده على الستين من عمره اندلعت الفتنة البربرية، إلا أنه لم يغادر قُرْطُبَة كما غادرها الكثيرون[4] من رجال الدولة العامرية والمروانية هرباً من الحروب الأهلية[5]؛ مما كان له أكبر الأثر على سلوك ابن حَيَّان حيث عاش ومات ولم يغادر قُرْطُبَة.

ومما لا شك فيه أنه قد تعلم الشئ الكثير مما شاهده في بلاط الخلفاء والوزراء، واكتسب تجارب وخبرات ثرية، وقد بذل أيضاً جهوداً ذاتية كبير لتوسيع مداركه وزيادة معارفه .

وظائف ابن حَيَّان

يبدو واضحاً أن ابن حَيَّان شغف بعلم السياسة في بواكير حياته، يشهد بذلك توليه منصب ديوان الشرطة "[٦]، ثم صار مسئول" **إملاء الذكر في ديوان بني**

---

(١) القضافة: قلة اللحم.

(٢) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٤، ص ٣٣.

(٣) نفسه، ص ٣٣، ٣٩، ٤٧.

(٤) منهم على سبيل المثال: ابن شهيد، وابن حزم وأبيه الوزير أحمد بن سعيد بن حزم.

(٥) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ١٧.

(٦) نفح، ج١، ص ٥٦٦، وقد حدث خلاف بين المؤرخين حول توليه منصب الشرطة فقال البعض ومنهم عبدالله جمال الدين " لو أن الأمر كذلك لأشار المتقدمون قريبو العهد من ابن حَيَّان – مثل

جَهْوَر"[1]، وكانت هذه الفترة الأكثر نشاطاً في حياته؛ فاضطلع على الكثير من أسرار عصره بصورة لم تتح لغيره، ومن هذه الكتابات تأريخه عن فقهاء قُرْطُبَة، وعن المآثر العامرية، والبطشة الكبرى، وعن استيلاء المُعْتَمِد بن عَبَّاد[2] على قُرْطُبَة[3]، فضلا عن كتابيه الشهيرين المقتبس والمتين[4]، كما اتيحت له فرصة الاطلاع على الرسائل الديوانية القديمة مثل الرسائل المتبادلة بين الخليفة الناصر، وبين قواد جيوشه في المغرب، وكتابه إلي الرعية[5] عقب بطشه بحركة ابن مسرة[6]، وكتابه الى العمال عن فتح بُبَشْتُر[7] الخ

ابن بَسَّام – إلى توليه أعباء هذه الوظيفة. فذلك من الأمور الهامة التى لا يجوز إغفالها عند الترجمة لشخصية ما، خاصة إذا كانت لها أهمية ابن حَيَّان، كما أن تلك الوظيفة بحكم طبيعتها، بعيدة عن مجال عمله ونشاطه الفكرى. ويرجح د. محمود مكى أن يكون قد حمل لقب " صاحب الشرطة" باعتباره لقباً تشريفياً كما نقول فى العصر الحديث وخاصة وأن منع هذه الألقاب النظرية قد أصبح تقليداً جارياً منذ أيام الحكم المستنصر، واستمر طوال الدولة العامرية، ولا نستبعد أن يكون قد بقى فى ظل حكومة الجَهاورَة ومن الثابت أن أبا الوليد بن جَهْوَر قد ولاه عملاً ما، أنقذه من الفقر والعوز، وكان هذا العمل يتصل بتخصصه حيث عهد إليه بالكتابة وإملاء الذكر فى ديوان السلطان.

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج١، ص ٣٧٥.

(٢) هو المُعْتَمِد على الله أو القاسم محمد بن المعتضِد بالله عَبَّاد من بنى عَبَّاد، ولد فى باجة (اقليم فى البرتغال حاليا) و توفى فى أغمات ٤٣١ – ٤٨٨ هـ/ ١٠٤٠ – ١٠٩٥ م للمزيد راجع: الحُلة السِّيَراء ، ج٢، ص ٥٢ – ٦٧، بغية الملتمس، ترجمة رقم ٢٤٨، المعجب، ص ١٠١، ١٠٣، ١٣٦، ١٤٩، وفيات الأعيان، ترجمة رقم ٦٨٦.

(٣) سنة 462هـ/ ١٠٦٩ م.

(٤) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، ص ٩٧.

(٥) المقتبس (شالميتا)، ص ٢٥ .

(٦) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، ص ١٠٠.

(٧) المقتبس (شالميتا)، ص ٢١٩ ، وبُبَشْتُر Bobastro: حصن منفرد حصن منيع بينه وبين قُرْطُبَة ثمانون ميلاً، وهو حصن تزل عنه الأبصار، فكيف الأقدام، على صخرةٍ صماء منقطعةٍ، لها بابان يتوصل إلى أعلاهما من شعب يسلكه الراجل الخفيف، وطريقه عند الطلوع والهبوط على النهر، وأعلى الصخرة سهلة مربعة ذات مياهٍ كثيرةٍ تقطع الحجر، فينبعث الماء العذب، وينبط فيها الأبَّار بأيسر عمل وكدٍ، وحصن بُبَشْتُر كان قاعدة العجم، كثير الديارات والكنائس والدواميس، ولهذا الحصن قرى كثيرة، وحصون خطيرة، وما حوله كثير المياه، والأشجار، والثمار، والكروم، وشجر التين، وأصناف الفواكه، والزيتون؛ وما بها الآن إلا نبذ مما كان، فإن فتنة ابن حفصون أتت على أكثر ذلك. راجع: ياقوت: معجم، ج١، ص ٣٣٣.

بيد أنه على الرغم من تلك المكانة التي حظى بها ابن حَيَّان في البلاط والراتب الواسع؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من المضي في كتابة تاريخه بحياد وموضوعية، ولم يتحول أبداً إلى "مؤرخ بلاط" من طراز من سبقوه مثل ابن الْقُوْطِيَّة أو عيسى الرَّازي، ولا من تلوه مثل ابن الصيرفي بالنسبة للمرابطين أو ابن صاحب الصلاة وابن القطان بالنسبة للموحدين[1]، وهو ما سنعرض له بشئ من التفصيل عند الحديث عن الموضوعية في كتاباته.

ثقافة ابن حَيَّان

نال ابن حَيَّان حظاً وافراً من ثقافة عصره، وكان لها تأثير فعال على توجهاته الفكرية، وخير شاهد على ذلك ما وصفه به تلميذه أبي علي الغَسّانيّ قائلاً: **" كان قوى المعرفة، مستبحراً في الآداب"**[2]، ويقول ابن خلدون في مقدمته عن ثقافته أنه: **" قَيَّد شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره"**[3]، وقد درس القرآن الكريم، والتفسير، والحديث الشريف وعلومه، والفقه، واللغة العربية وآدابها، وذلك لأن هذه الدراسات كانت بديهية في عصره، ولم تكن لتستقيم له أدوات المؤرخ مالم يكن قد درس تلك العلوم؛ بدليل أنها انعكست على كتاباته وأفادته إفادة جمة فى منهجه في كتابة التاريخ.

وتأثرت ثقافة ابن حَيَّان بنخبة من الشيوخ من رجال الدين والفقه والأدب واللغة من أمثال المحدث عمر بن حُسَين بن نابل[4]، حيث سمع منه الحديث[5]،

---

(1) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٤٥.

(٢) ابن بَشْكُوَال: الصلة، ج١، ص ٢٤٧.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ١٤.

(٤) وهو من أهل قُرْطُبَة، ويُكْنَى: أبا حفص: وكان شيخاً صالحاً من بيت علم ودين، وكف بصره فى آخر عمره، وكان ثقة صدوقاً عفيفاً موثراً (٤). وشهد له بالحفظ الجيد، وكان من الفقهاء المشاورين وكف بصره فى آخر عمره، ولكنه ظل يسمع الناس حتى وفاته فى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١١م (٤). راجع، ابن بَشْكُوَال: الصلة، ج٢، ص ٣٩٦، ترجمة رقم ٨٤٩ .

(٥) أما الحديث وما يتصل به من علم الجرح والتعديل ومعرفة طبقات الرجال ونقد الأسانيد وغير ذلك من أدوات هذا العلم فإنه أفاد ابن حَيَّان فى منهجه النقدى للتاريخ، راجع، محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثاني، ص ٢٥.

وقد تأثر به ابن حَيَّان بصورة واضحة حيث كان يورد الحدث الواحد بروايات متعددة لغير واحد من الرواة؛ فنجده يستخدم عبارات مثل: "**ذكر شرح هذه القصة من طُرق**"[١]، فمثلاً عند التعرض لشرح محنة أهل طُلَيطِلَةُ[2] رجع إلى رواية عيسى الرَّازي[٣] والحسن بن مفرج[٤]، وابن الْقُوْطِيَّة[٥]، وعبد الملك بن حبيب[٦].

وقد درس ابن حَيَّان على يد **ابن أبي الحُباب**[٧]، أشهر كتابين **لابن السِّكِّيت** (ت ٢٤٤ هـ/ ٨٥٨ م)[٨]، وهما كتاب " **الألفاظ**"، وكتاب " **إصلاح**

---

(١) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٢٣.

(٢) طُلَيطِلَةُ: كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق، ،وهى :مدينة قديمة فى أسبانيا تقع فى وسط شبه جزيرة أيبريا على مسافة ٩١ ك جنوبى غربى مدريد. كانت مزدهرة أيام الرومان وتسمى (توليتم (toletum ثم صارت حاضرة الدولة الْقُوْطِيَّة. فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ (٧١٣ م) وجعلوها قاعدة الثغر الأدنى للدولة الإسلامية وحينما سقطت دولة الخلافة الأُمَوية وانقسمت الأندلس إلى طوائف كانت طُلَيطِلَةُ مستقلة يحكمها بنو ذى النون سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) وهم من زعماء البربر وسقطت طُلَيطِلَةُ فى يد ملك (قَشْتَالَة) (الفونسو السادس) فى المحرم سنة ٤٨٧ هـ ١٠٨٥ م وينتسب إليها كثير من العلماء منهم عيسى بن دينار الغافقى الطليطلى ومحمد بن عبدالله بن عيشون الطليطلى وصاعد الأندلسى صاحب كتاب طبقات الأمم (راجع، ياقوت: معجم البلدان (٤ / ٣٩)، أبو بكر الزهرى: كتاب الجغرافية، ص ٨٣، ويوسف بنى ياسين: بلدان الأندلس، ص ٣٩١).

(٣) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٠٦؛ أما عن عيسى فسوف نتناوله بالترجمة فى فصل مرجعية ابن حيان.

(٤) نفسه، ص ١٠٧؛ أما عن هذه الشخصية فسوف نتناولها بالترجمة فى فصل مرجعية ابن حيان.

(٥) نفسه، ص ١١٣؛ أما عن هذه الشخصية فسوف نتناولها بالترجمة فى فصل مرجعية ابن حيان.

(٦) نفسه، ص ١٢٤ أما عن هذه الشخصية فسوف نتناولها بالترجمة فى فصل مرجعية ابن حيان.

(٧) هو أحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبى الحباب ولد حوالى عام ٣١٠/ ٩٢٢-٢٣ وتوفى فى سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م. وأصله من البربر من مَصْمُودَة، لكنه كان ممن استقروا فى الأندلس منذ زمن، فأصبح فى عداد الأندلسيين وتتلمذ على يد أبى على القالى ومن أقرب تلاميذه له وأحبهم إليه، والراوى الفقيه والقاضى عبدالله بن محمد بن قاسم الثغرى وقد اشتهر من بين تلاميذه ابن حَيَّان والأديب ابن زروق والقاضى أبو عمر الحذاء والوالى الثانى من بين العامريين عبد الملك المظفر، وكان عالماً باللغة والأخبار، حافظاً ضابطاً لها، أنظر ترجمته فى: الصلة جـ١ رقم ٣٥، ص ١٩، وكحالة: معجم المؤلفين، جـ١، ص ٢٧٦

(٨) ابن السِّكِّيت (ت ٢٤٤ هـ/ ٨٥٨ م) هو يعقوب بن إسحاق، اللغوى، النحوى، الراوى، الشيعى المذهب، كنيته (أبو يوسف)، و(السِّكِّيت) لقب أبيه إسحاق، وعُرِف أبوه بهذا اللقب لفرط

المنطق "[1]، وقد أعانه ذلك على امتلاك زمام اللغة على نحو واضح، ولم يكن ابن حَيَّان مجرد دارس للكتابين وحسب، وإنما صار بعد ذلك راوية لهما[2]، ويعتبر ابن أبي الحباب من أساتذة ابن حَيَّان المشهورين، يقول عنه: **" كان متفننا في ضروب اللسان....صحيح الرواية جيد الضبط لكتبه، حسن الإيراد لما يحمله"** [3]. وهذا يوضح الأثر الذي تركه في ثقافة ابن حَيَّان.

وما بقى من مؤلفاته يؤكد أنه كان على حظ وافر بالمعرفة اللغوية والأدبية، إقتبس كثيراً من شعر الشعراء، وانتقد بعضهما، وكانت ثقافته مرتكزة إلى حد كبير على قراءات مستمرة في الكتب المتوفرة في عصره، واستمد الكثير من أخباره منها خاصة في كتابه " المقتبس " وهذا ما يفسر لنا أن كتبه التى تعرض فيها لتاريخ الأندلس السابق على عصره تكاد تخلو من الأسانيد والروايات، فهو لا ينقل إلا عن أصول مكتوبة، فلسنا نجد فيها لفظ **" سمعت "** أو **" رويت "** بقدر ما تجد **" قرأت فى كتاب فلان "**[4].

كما تلقى ثقافته وحصيلته التاريخية واللغوية والأدبية على عدد كبير من علماء

سكوته ولد في الدورق، قرب الأهواز في خوزستان، رحل من خوزستان إلى بغداد مع أُسرته، وأفاد فيها من دروس أساتذة كبار كأبي عمرو الشيباني، والفرَّاء، وابن الأعرابي، والأثرم، ونصران الخراساني، وكلّهم كانوا من أعلام العلم والأدب آنذاك. وما لبث أن صار في مصافَّ علماء عصره كابن الأعرابي، وأبي العباس ثعلب وعُرف كأحد كبار فقهاء اللغة وصيارفة الكلام وكان لابن السِّكِّيت دور بالغ الأهمّية في جمع أشعار العرب وتدوينها، مضافاً إلى نشاطاته الملحوظة في النحو واللغة (راجع، ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص ١٥٩، بغية الوعاة: ٢ / ٣٤٩، وفيات الأعيان: ٢ / ٣٠٩.

(١) جاء هذا الكتاب أبوابًا؛ بدأه مؤلفه بباب فعل وفعل باختلاف المعنى، وأنهاه بباب الغار. والكتاب معجم لغوى ـ أو يكاد ـ ولا علاقة له بعلم المنطق، كما قد يتبادر إلى الأذهان، حيث قُصِدَ بالمنطق فيه المعنى اللغوى لا الاصطلاحى، يشرح الكلمة في العربية، مُطعِمًا الشرحَ بالقرآن، وبالأشعار والأمثال العربية، وله جهدٌ في تصحيح ما شاع من أخطاء لُغوية على الألسنة.

(٢) الصلة: ج١، ص ١٥٣.

(٣) الصلة: ج١، ص ٢٠.

(٤) أنظر على سبيل المثال، ابن حَيَّان: المقتبس (تحقيق محمود مكى، الشطر الثانى)، ص ٤٣، حيث يقول: " قرأت في كتاب معاوية بن هاشم الشَّبِنسِيِّ".

عصره، ومنهم أبو بكر مسلم بن **أحمد بن أَفْلَح** النحوي (ت سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م)، وكان وافر الحظ من العلم، وله باع كبير في العربية ورواية الشعر[١]، وكان أيضاً من بين أساتذته المشهورين اللغوي **صاعد البغدادي**[٢]، وكان عالما باللغة والآداب والأخبار[٣]، وكان لهذا أثره الكبير في تمكنه من ناصية اللغة والشعر، وقد قرأ عليه كتاب " **الفصوص**"[٤] منفرداً في داره " **سنة تسع وتسعين وثلاثمائة**" [٥]، وقد كان هذا الكتاب الذي ألفه، ذا أثر كبير في تغذية أسلوب ابن حَيَّان الأدبيْ وتعتبر الأخبار التي نقلها ابن حَيَّان عن رواية الفصوص غاية في الأهمية، وألقت الأضواء على أسباب عنايته بالكتابة السليمة، وصياغة كتبه التاريخية بلغة أدبية راقية، وهذه الرواية – لكتاب الفصوص- كفلت لابن حَيَّان مكاناً بارزاً بين رواة اللغة والأخبار بسبب ندرة الكتاب بعد أن انتقده الكثير من أدباء قُرْطُبَة، وأمر المنصور بن أبى عامر بتغريقه في النهر حينما أخذ الناس يتندرون بأكاذيب صاعد ومخرقاته فأصبح كتابه بعد ذلك المستودع الوحيد له في عصره[٦].

---

(١) راجع، شوقى ضيف: ابن زيدون، دار المعارف، ط١٢، 1990 م.

(٢) صاعد البغدادى (ت ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م): هو صاعد بن الحسن بن عيسى الرَّبعِىّ البغدادى اللغوى، يُكْنَى: أبا العلاء. البغدادى تربة، والرَّبعِىّ نسباً، وقد ورد من المشرق إلى الأندلس فى أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور بن أبى عامر، وسرعان ما استطاع أن يلفت إليه إنتباه المنصور بمعلوماته فى التاريخ واللغة وسرعة بديهته وتفننه فى الإرتجال.وأصبح شاعر البلاد، وكان يرافق المنصور فى رحلاته وكان يعمل بالتدريس، وقد إبتدع طريقة جديدة لتدريس شعر الجاهلية يغلب عليها الطابع التدريبى، وكانت هذه الطريقة تقوم على أساس قراءة التلميذ لشعره، ويقوم المعلم بسؤاله عن معنى الكلمات وعلى الطالب أن يشرحها من واقع ملخصاته التى نقها من المعاجم العربية، وعانى بعد ذلك من صروف الزمن إلى أن استقر فى صِقِلِيَة حيث مات بها، أنظر ترجمته فى، الصلة، رقم ٥٤١، نفح، ج ٤، ص ٦٥، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٨٨، بغية الملتمس، ص ٢٧٧، جذوة المقتبس: ترجمة رقم ٥٠٩، ص ٢٤٠، معجم الأدباء ج ٣، ص ٤١٥، كراتشكوفسكى: الشعر العربى فى الأندلس. ترجمة، محمد منير مرسى، عالم الكتب القاهرة ١٩٧١ م، ص ٣٦، ودراسة عبد الوهاب التازى: صاعد البغدادى، حياته وآثاره، وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٩٣ م.

(٣) جذوة المقتبس: ترجمة رقم ٥٠٩، ص ٢٤٠.

(٤) اسمه الكامل " الفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار " راجع، ابن خِير: الفهرسة، ص ٣٢٥ ، ابن الأَبَّار: معجم أصحاب على الصدفى، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠ م، ص ١٦ .

(٥) الصلة، ج١، ص ٢٣٨.

(٦) للمزيد راجع الشكعة: المغرب والأندلس، آفاق إسلامية، مرجع سابق .

وتثقف أيضاً على يد **أبي يزيد المصري**[١] وكان عميق التأثير فيه وفي أسلوبه لأنه كان واسع الثقافة في الأدب والأنساب والأشعار[٢]؛ فأثرت في كتاباته تأثيرا بالغاً. كما أمده ابن الفرضي[٣]: (ت ٤٠٣ هـ - ١٠١٢م)، صاحب كتاب " **تاريخ العلماء والرواة بالأندلس** ، بالمعلومات الوفيرة التي جمعها ليرسم بها صورة للنشاط الثقافي في الأندلس[٤] فيقول عنه ابن حَيَّان : " **لم ير مثله بقُرْطُبَة في سعة الرواية، وحفظ الحديث ومعرفة الرجال** "[٥] وقد استفاد بالضرورة من هذه التلمذة في تمحيص الروايات التاريخية فكان له مصدراً من أهم مصادر تاريخه.

وتأمل معارف هؤلاء الشيوخ يعطينا فكرة عن ثقافة ابن حَيَّان فى مرحلة

---

(١) هو المحدث النسابة أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبى يزيد المصرى، وكان قد قدم إلى الأندلس من مصر فى سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٤م بعد أن أخذ عن جلة محدثيها وعلمائها وكان رجلاً أديباً، حلواً حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار، وله أشعار حسان فى كل فن. وسكن قُرْطُبَة إلى أن وقعت الفتنة وخرج عن الأندلس ومات بمصر سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩م، راجع، ابن بشكوال: الصلة، رقم ٧٥٦.

(٢) الطاهر أحمد مكى: دراسات عن ابن حزم. ص ٢٨٦.

(٣) هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأَزْدى المعروف بابن الفَرَضى ولد فى سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م وتوفى فى حدود ٤٠٣ هـ، سمى بالفَرَضِى لأن والده ممن غلب عليه علم الفرض والحساب فنسب اليه وعرف به، والفَرَضِى بفاء وراء مفتوحتين ثم ضاد معجمة مكسورة نسبة للعلم بالفرائض والمواريث،، من أهل قُرْطُبَة يُكْنَى أبا الوليد، وكان حافظاً متقناً عالماً، ذا حظ وافر من الأدب، رحل إلى المشرق عام ٣٨٢/ ٩٩٢-٩٣ (٣)، وأخذ عن علماء مكة فدرس على أيدى الصوفى على بن عبد الله بن جهدم الحمدانى (توفى عام ٤١٤/ ١٠٢٣) صاحب كتاب " أخبار الصالحين وحكاياتهم " ومصر على أيدى الحسن بن إسماعيل الضراب (٣١٣/ ٩٢٥-٣٩٢/ ١٠٠٢) والقَيْرَوَان على أيدى أحمد بن نصر الداؤودى (توفى عام ٤٠٢/ ١٠١١) ثم عاد إلى قُرْطُبَة وجمع علماً كثيراً فى فنون العلم فصنف كتابه فى " تاريخ علماء الأندلس " وبلغ فيه = النهاية والغاية من الحفل والإتقان "، راجع: الحُمَيِّدى: جذوة المقتبس، ص ٢٣٧، ابن بَشْكُوَال: الصلة ص ٢٥١، بغية الملتمس ص ٣٣٤، ترجمة رقم ٨٨٨، سير أعلام النبلاء ص ١٧٨، عزت العطار: نفسه ج ١، ص ٦، الذهبى: سير أعلام، ج ١٧، ص ١٧٩ .

(٤) ليفى بروفنسال: الحضارة العربية فى أسبانيا. ط٣، ترجمة: الطاهر مكى، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٤ م، ص ١٥٣.

(٥) ابن بَشْكُوَال: الصلة، ج١، ص ٢٥٢ ترجمة رقم ٢٧٣، (نقلاً عن ابن حَيَّان)، الذهبى: تذكرة الحفاظ ج ٣، ص ١٠٧٦ (نقلاً عن ابن حَيَّان).

التكوين، ويلقى ضوءاً على منهجه فى كتابة التاريخ؛ فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة المتنوعة، وإن كنا نلمس فيهم اتجاها واضحا إلى علوم اللغة والأدب والأخبار، ثم إلى علوم الحديث، وقد استفاد ابن حَيَّان من ذلك فوائد جمة[١].

وهذه الثقافة الموسوعية أهلته لرصد ومناقشة وتفنيد الكثير من القضايا التاريخية والأدبية الأدبية؛ بل والمشاركة في كتابة عدد كبير من الرسائل التي تنتمي إلى النثر الفني وكان يطلق عليها **الرسائل الإخوانية**[٢]، كما ترجم للعديد من العلماء والأدباء، بأسلوب أدبي، حيث أنشأ رسائل في التهنئة والشكر والاستمناح والسياسة والهجاء وهي شكل من أشكال العمل الأدبي[٣] وهو ما سنعرض له عند الحديث عن مؤلفات ابن حَيَّان " التصنيف والمحتوى ".

كما اتصل ابن حَيَّان بكثير من أعلام عصره وأدبائه المشاهير، واحتك بهم؛ بل وأخذ عنهم واستفاد من مخالطتهم، وبالتالي كانوا حافزا على توسيع مداركه وزيادة معارفه؛ فتوطدت علاقته – في سن مبكرة- بأبي الوليد بن جَهْوَر الذي كان قد ولي العهد ثم صار حاكمًا، وكان حافظًا للقرآن الكريم، يهتم بسماع العلم من الشيوخ والرواية عنهم، وقد امتدت هذه الصداقة بينهما حتى جاوز الخمسين، كما توثقت علاقته كذلك بأبي بكر بن ذَكْوان الذي ولي منصب الوزارة، وعرف بالعلم والعفة والفضل، ثم تولى القضاء ببلدة قربة فكان مثالاً للحزم والعدل[٤].

---

(١) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٢٤.

(٢) الرسائل الإخوانية: وهى التى يكتبها الأدباء عامة من غير العاملين فى دواوين الدولة، وهى غير محددة بموضوعات معينة، وإنما يكتبها الأدباء فى مناسبات خاصة أو مطارحات أدبية ومساجلات بلاغية فيما بينهم. وهناك الرسائل الديوانية: وهى التى تكتب فى شئون الدولة، وتسجل الأحداث التاريخية أو الأوامر والتوجيهات الرسمية إلى الولاة والأمراء والقواد وكبار الموظفين فى الدولة (راجع، مصطفى الشكعة: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة:، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(٣) الشكعة: المغرب والأندلس، آفاق إسلامية، مرجع سابق، ص ص ٣٥٧.

(٤) للمزيد راجع، احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قُرْطُبَة)، دار الشروق، عمان - الأردن، ١٩٨٧، أحمد بدر: دراسات فى تاريخ الأندلس وحضارتها،أطلس للنشر والتوزيع، دمشق ١٩٧٢ م.

كما صاحب ابن حَيَّان الأديب **أبو الوليد بن زيدون**: (٣٩٤ – ٤٦٣هـ/ ١٠٠٣ – ١٠٧١م) [١] وهو علم من أعلام الأدب الأندلسي[٢]، وترك أثراً كبيراً في الأدب العربي [٣]. وقد ترجم له ابن حَيَّان فقال: " **وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقُرْطُبَة في أيام الجماعة والفتنة، وفرع أدبه، وجاء شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العَجب كل مذهب، وهون عنده كل مطلب**"[٤].

ومن أصدقائه المشهورين أيضاً **ابن حَزْم**[٥] (٣٨٤ – ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ – ١٠٦٣ م) الفقيه الظاهري، والشاعر، ودارس الملل والنحل، الأُمَوي الولاء، وكان يرى صحة إمامة الأُمَويين في الشرق والغرب، ويرى أنهم بحق أنبل من حكم الأندلس[٦]، وهي نفس النزعة والولاء التي نجدها لدى ابن حَيَّان، وعلى يد ابن حَزْم وابن حَيَّان انعتق علم التاريخ من إسار المصادر اللاهوتية باندثار دور " المؤرخ – المحدّث " وإفساح المجال للمؤرخ الفقيه والتاجر والوراق والكاتب والطبيب والفيلسوف، الأمر الذي أفضي إلي تحويل العلم من " الرواية " إلى " الدراية "[٧]، وهو ما سيرفع إنتاج ابن حَيَّان التاريخي إلى مقام رفيع.

---

(١) للمزيد راجع، على عبد العظيم : ابن زيدون:، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م (سلسلة أعلام العرب: ٦٦)، ابن بَسَّام: الذخيرة، الذهبى: سير أعلام النبلاء: (الجزء الثامن)ـ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٠م.

(٢) وهو صاحب النونية المشهورة التى مطلعها:

أضْحى التَّنائى بديلاً من تَدانينا

ونابَ عن طيب لُقْيانا تَجافينا

(راجع، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: على عبد العظيم ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٨٠م.

(٣) على عبدالعظيم:: ابن زيدون ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة: ١٩٦٧م، ص ٣

(٤) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٢٠٨

(٥) أنظر ترجمة ابن حزم، فى الجذوة: ٢٩٠ (والبغية رقم: ١٢٠٤) والصلة: ٣٩٥ وطبقات الأمم: ٨٦ والذخير ١/ ١: ١٤٠ والمطمح: ٥٥ والمغرب ١: ٣٥٤ والمعجب: ٣٠ وتاريخ الحكماء للقفطى: ١٥٦ وتذكرة الحفاظ 241 :3 ومسالك الأبصار (الجزء الثامن)، وفى طوق الحمامة معلومات عنه وكذلك فى سائر كتبه ورسائله.

(٦) محمد أبو زهرة: ابن حزم، حياته، عصره – آراؤه وفقهه، دار الفكر العربى، ص ٢٧٨.

(٧) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٤

وكانت علاقة ابن حَيَّان بمعاصره ابن حَزْم تقوم على الاحترام المتبادل حتى في حالة الاختلاف لكنه كان خلاف على مستوى أخلاقي يليق بالعلماء فيقول عنه " **كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب. وما يتعلق بأذيال الأدب،مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة**"[1]، وقد عزا ابن حَيَّان – على الرغم من بعض تحامله على ابن حَزْم – ما أصابه من الفقهاء إلى أنه.. "**من الحسد الذي لا دواء له**"[2] وأكدت لنا تلك العلاقة مدى اتصاف ابن حَيَّان بالموضوعية كما سيتضح عند الحديث عن الموضوعية في كتاباته.

وكان من بين أصدقائه أيضاً **أبو بكر بن زيدون** حيث استمرت صلة الصداقة التي ربطت ابن حَيَّان بأبي الوليد بن زيدون بابن صديقه أبي بكر محمد بن أبي الوليد ابن زيدون على الرغم من فارق السن بين الرجلين، وكان أبو بكر قد خلف أباه على وزارة المُعْتَمِد بن عَبَّاد، ثم رافق أميره العَبّادي إلى قُرْطُبَة حينما فتحها في سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م، واستقر في موطن أبيه وزيرا للفتح ابن المُعْتَمِد الملقب بالمأمون[3] فيقول ابن حَيَّان " وخلف ولده أبا بكر الفذ الوزارة المرتسم بالكتابة وراءه" [4] وهذه وصداقة ذلك الوزير جعلت ابن حَيَّان على قرب دائم من الأحداث ولذا كان يسجلها أولاً بأول.

كما تأثر **بأبي حفص بن بُرْد**، الأديب، الوزير، كاتب عبد الملك المُظَفَّر ووزير سليمان المستعين وغيره من خلفاء الفتنة، ويقول عنه صاحب جذوة المقتبس " **مليح الشعر. بليغ الكتابة من أهل بيت أدب ورياسة له " رسالة في السيف والقلم**[5]

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج ١، ص ١٠٣، نقلا عن ابن حَيَّان.

(٢) عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسى. ط٢، الزهراء للإعلام العربى ١٩٩٨، ص ٧٨.

(٣) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٥١.

(٤) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج١، ص ٢٦٠.

(٥) يقول فى القلم: القلم: ما أعجب شأن القلم؛ يشرب ظلمة، ويلفظ نوراً، وقد يكون قلم الكاتب أمضى من سيف المحارب. القلم سهم ينفذ في المقاتل، وشفرة تطيح بها المفاصل.

والمفاخرة بينهما وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس[1]، وقد نقل عنه كثيراً من الأخبار المتعلقة بأواخر أيام العامريين وبالفتنة، نذكر منها على سبيل المثال خبر مقتل عيسى بن سعيد القطاع[2].

ومن أصدقائه المؤثرين فيه وفي كتاباته التاريخية، أبي الوليد الباجي (٤٠٣-٤٧٤ هـ/ ١٠١٢ – ١٠٨١ م) الذي تتلمذ على عدد من علماء الأندلس[3] وقال عنه ابن بَسَّام **" نشأ أبو الوليد هذا، وهمته في العلم تأخذ بأعناق السماء ومكانه من النثر والنظم يسامي مناط الجوزاء وبدأ بالأدب فبرز في ميادينه واستظهر أكثر دواوينه، وحمل لواء منثوره وموزونه، وجعل الشعر بضاعته فوصل به الأسباب بالأسباب"**[4].

ومن بين أصحابه أيضاً **أبو القاسم محمد بن عبد الغفور**، وكان صاحبا للمعتمد بن عَبَّاد قبل أن يخلف أباه على ملك إشبِيلِيّة، ثم تولى له الوزارة بعد ملكه، وتُوُفِّي في أيامه وهو في عنفوان شبابه في سنة لم يحددها من ترجموا له. وكان من أسرة توارثت الوزارة والكتابة في أشبليه، فقد ولي الكتابة كذلك ابنه أبو محمد وحفيده أبو القاسم[5]. وهناك أيضا أبو القاسم سوار بن أحمد ٣٦٩ – ٤٤٤هـ/ ٩٧٩ – ١٠٥٢ م)، وهو والد القاضي أبو المُطْرَف عبد الرحمن بن سوار. كان من أهل العلم والذكاء والفهم، حافظاً للمسائل، وعارفا بعقد الشروط حافظاً لأخبار قُرْطُبَة وسير ملوكها

---

(١) الجذوة: ترجمة رقم ١٩٢، ص ١١٥، ابن سعيد: ج ١، ص ٢٠٥

(٢) الذخيرة: (تحقيق البدري)، ج١، ص ٧٨، نقلا عن ابن حَيَّان.

(٣) من أمثال يونس بن عبد الله بن مُغِيث، وأبي عمر المعافري ، وأبي بكر خلف بن أحمد الرحوي الانصاري الطليطلي، وأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد بن فورتش السرقسطي، وأبي عمر أحمد بن محمد الغافقي، وأبي الأَصْبَغ عيسى بن خلف بن أبي درهم القاضي، وأبي بكر محمد بن الحسن بن عبد الوارث ، كما أخذ عن خاله أبي شاكر بن محمد بن موهب القبري .

(٤) الذخيرة: (تحقيق لطفي عبدالبديع). القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٨٠

(٥) راجع، حاشية د. مكي، في مقدمة المقتبس، الشطر الثاني، ص ٥٢

المروانيين. وكان حليماً وقوراً متوداً إلى الناس[١] وقد جمع بينهما الاشتراك في الاهتمام بالأخبار التاريخية[٢].

أما ابن شُهَيْد فقد كان أقرب أصدقاء ابن حَيَّان، ومدحه بقوله: أنه " **كان يَبْلُغ المعنى ولا يُطيل سَفَرَ الكلام**[٣]، وقد ذكر عنه أخباراً عديدة منها خبر أحد المجالس التي كانت تضمهما مع صديق ثالث من أمراء البيت العامري، هو أبو عامر محمد بن الحاجب عبد الملك المُظَفَّر بن المنصور، وكان ممن يأنس بالأدب وقد اقترح أبو عامر بن المُظَفَّر على ابن شُهَيْد أن يرتجل شعراً في وصف ذلك المجلس؛ فأسعده ابن شُهَيْد بذلك وقال أبياتاً سجلها ابن حَيَّان في تاريخه "[4].

كما كان ابن حَيَّان على اطلاع وثيق بتاريخ الأندلس الإسلامية بل وتاريخ الممالك النصرانية أيضاً، مما يرجح أنه كان يعرف عجمية الأندلس وأن " ما أورده من أخبار عن إسبانيا النصرانية ينم عن معرفته الدقيقة بكل أحوالها وأنساب حكامها، أكثر من مؤرخي عصره من المسيحيين[٥].

وقد ذكر ليفي بروفنسال[٦] أن نسبة عالية من أهل الأندلس كانت تتكلم اللغتين العربية واللاتينية بالسهولة نفسها، وكان ابن حَيَّان من المؤرخين القلائل الذين ذكروا بعض الحوادث المرتبطة بتاريخ العلاقات بين الأندلس الإسلامية والممالك المسيحية على سبيل المثال ذكره لعلاقة " غليان بن برناط أحد قوامس " مسيحيو الشمال مع الأمير عبد الرحمن الثاني[٧]، ولعلّ من مظاهر هذا الإطلاع المتعمّق إيراده وثائق في غاية الأهمية في التاريخ الأندلسي، ويندر وجودها في مصادر أخرى،

---

(١) الصلة: ج١، رقم ٥٢٤، ص ٢٢٩.

(٢) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٥٤.

(٣) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ١١٨، المُغرب فى حُلَى المَغرب : ج١، ص ٧٨.

(٤) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٣٦.

(٥) عبدالمحسن رمضان: الحروب الصليبية، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٦) الحضارة العربية، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٧) أنظر المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ٢ وما بعدها. وسوف يورد ابن حَيَّان مزيدا من أخبار غليام هذا في سرده لأحداث سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م.

وتغطي مساحة مهمة من التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلاد الأندلس، كما سيتضح في الفصل التالي.

وناحية أخرى من ثقافة ابن حَيَّان جديرة بالذكر هي كتاباته في ميدان الجغرافية الأندلسية، فقد أورد لنا فوائد جغرافية متنوعة شارحاً أو معلقاً أو محدداً للمواضع وخطط المدن والحصون والقرى والكُوَر، وقد نقل في مقدمة كتاب " المقتبس " الجزء الجغرافي الذي صدر به أحمد بن موسى الرَّازي تاريخه، حتى إن هذه الفوائد الجغرافية التي يمكن استخراجها من تاريخ ابن حَيَّان تكاد تؤلف كتاباً صغيراً[1]، وقد نقل المقري في النفح نقلاً عن المقتبس فقرة طويلة بأشبان – أسبانيا – والأمم التي حكمت الأندلس قبل العرب كما نقل عنه الحديث عن جسر قُرْطُبَة ووصفه لمدينة لزهراء ومبانيها ومساجد قربة ودورها وحماماتها، وكان في وصف الغزوات يذكر الطرق التي تمر بها ويصفها ويذكر ما فيها من جبال وهضاب وحصون ومدن وقرى، كل ذلك في دقة كاملة[2].

الانتماء المذهبي لابن حَيَّان

تعصب ابن حَيَّان للمذهب **السني المالكي** – وهو المذهب الرسمي للدولة – الذي دخل إلى الأندلس في حياة الإمام مالك نفسه، وذلك بفضل من درسوا عليه من تلاميذه الأندلسيين ونقلوا كتابه " الموطأ"، وهم على التوالي **الغازي بن قيس**(ت ١٩٩/ ٨١٥) [٣]، وزياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب **بشبطون**[٤]، (ت

---

(١) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٦٠.

(٢) حُسَين مؤنس: الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مكتبة مدبولى، ط٢، ١٩٨٦ م، ص ١٠٢.

(٣) الغازى بن قيس: هو أبو محمد الغازى بن قيس القرطبى، من الموالى، رحل للمشرق أيام عبد الرحمن الداخل، فسمع الموطأ من الإمام مالك، وقرأ القرآن على نافع بن أى نعيم قارئ أهل المدينة، ثم انصرف إلى الأندلس فكان يؤخذ عنه، للمزيد راجع: ابن الفَرَضى: تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص ٥٧٨، وخالد الصمدى: مدرسة فقه الحديث بالغرب الإسلامى، ج١، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ٢٠٠٦ م، ص ٣٥.

(٤) شبطون: هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن، قرطبى سمع من مالك الموطأ وله عنه فى الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد، وروى عنه يحى اللَّيثى الموطأ فأشار عليه زياد بالرحيل الى مالك ما دام حياً وأخذه عنه ففعل، للمزيد راجع: بغية الملتمس: ص ٢٩٤ر، نفح الطيب، ج٢، ص ٤٥، الاستقصاء ج٢، ص ٥١٠ خالد الصمدي: مدرسة فقه الحديث، مرجع سابق، ص ١٢٢.

٢٠٤ هـ / ٨١٩ م)، وهو أول من أدخل مذهبه فى الأندلس، **ويَحْيىَ**[١] **بن يَحْيىَ اللَّيثي** (ت٢٣٤هـ / ٨٤٨ م)[٢]، وساهم غيره من الفقهاء فى انتشار المذهب المالكى أيضاً مثل: **عيسى بن دينار الغافقي الطليطلي**[٣] (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م)، ويكمن أثر المذهب المالكي في الأندلس بكونه أهم المحاور التي دارت حولها المؤلفات الأندلسية المبكرة، شرحا وتوضيحا لكتاب الموطأ، ودراسة لرجاله وأسانيده، ودفاعا وانتصارا له، وتأليفا حول المذهب بشكل عام[٤].

وكان ابن حَيَّان من أشد المتحمسين لذلك المذهب، وانعكس ذلك بوضوح على كتاباته ويظهر ذلك في هجومه الشديد على أتباع المذاهب الأخرى أصحاب " **الطائفة الخبيثة** " " **المارقة** " مثل حركة ابن مسرة " **الظنين المرتاب** "[٥] و " **المرائي بالعبادة** "[٦] **الرابض بالفتنة** "[٧] " **القادح في السُنة** "[٨]. واعتبر المعز لدين الله الفاطمي " صاحب إفريقية **الممد في الضلالة** "، ونظر إلي الفواطم عموما باعتبارهم "أهل الضلالة ". كما تحامل على أمراء المغرب الموالين للفاطميين، فنعت الحسن بن

---

(١) ذكر بلاد الأندلس، ص ١٢٥.

(٢) راجع، (محمود على مَكى: الثقافة الدينية فى الأندلس فى عصر عبد الرحمن الناصر، ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من مؤتمر المجمع فى الدورة السادسة والستين بتاريخ ٣ من المحرم سنة ١٤٢١هـ الموافق ٨ من أبريل (نيسان) سنة ٢٠٠٠ م، راجع، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة / ع ٩١ ص ١٣٣.

(٣) ترتيب المدارك، ج١، ص ٢٠٠، وعيسى هو: عيسى بن دينار عيسى بن دينار فقيه الأندلس ومفتيها، الإمام أبو محمد الغافقى، القرطبى. وكان صالحا خيرا ورعا، كان ابن وضاح يقول: هو الذى علم أهل الأندلس الفقه، وقال الفقيه أبان بن عيسى بن دينار: كان أبى قد أجمع على ترك الفتيا بالرأى، وأحب الفتوى بالحديث، فأعجلته المنية عن ذلك وقد ألف فى شيوخ مالك بن أنس (راجع: ترتيب المدارك ج١، ص ٢٠٠، الزركلى: الأعلام، ج٥، ص ١٠٢، ابن الفَرَضى: تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص ٥٥٦، الضَّبىّ: بغية، ج٢، ص ٥٢٥.

(٤) يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ فى الأندلس، ط١، مؤسسة حمادة للنشر، الأردن، ٢٠٠٢ م، ص ٦٥.

(٥) المقتبس (شالميتا)، ص ٢٠ – ٢١.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه.

(٨) نفسه.

قنون " **بالمارق**"، ولعن صاحب نكور "قبحه الله" ووصف النكوريين **الفاسقين** ويرجع ذلك للتعصب الواضح للمذهب السني عقيدياً وبني أُمَيّة سياسياً[1].

خلاصة القول أنه: تعددت عوامل التكوين الفكري لابن حَيَّان القرطبي فتعرضنا لأحوال المجتمع الأندلسي فترة حياة ابن حَيَّان ؛ وهو عصر مضطرب حافل بالتناقضات وانفرد بالتعقيد ليس على المستوى الداخلي فحسب بل بالمقارنة مع العصور السابقة واللاحقة[2].

ورأينا كيف أصبح مسلمو الأندلس إبان هذه الفترة يعيشون في ظل اضطراب سياسي وعصر متناقض؛ وهو ما أثر على فكر ابن حَيَّان وكون لديه رؤية واعية تجاه أحداث مجتمعه، وعبر عما حدث في هذا المجتمع من جوانب استحقت النقد لذا تعرض في كتاباته إلى نقد مظاهر الفوضى والتفكك في الأندلس.

ولم يصل ابن حَيَّان إلى ما وصل اليه من فراغ وإنما نتيجة عوامل عدة كان لها تأثيرها البعيد والعميق في فكره ونظرته للأمور منها دراسته على يد شيوخ بارزين في مجالهم كل تلك العوامل شكلت مصادر التكوين الفكري لابن حَيَّان القرطبي وانعكست على كتاباته التاريخية كما سيتضح في الفصول القادمة.

---

(١) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، ص ١٠٠.

(٢) محمد المنونى وآخرون: التاريخ الأندلسى من خلال النصوص، ط١، شركة النشر والتوزيع، المغرب، ١٩٩١ م، ص ٩٤. وليس أبلغ تعبيراً فى وصف حال الأندلس فى تلك الفترة من قول الشاعر ابن رشيق القَيْرَوَانى: **مما يزهّدنى فى أرض أندلس..... أسماء معتضدٍ فيها ومعتمد**
ألقاب مملكةٍ فى غير موضعها.....كالهرّ يحكى انتفاخاً صولة الأسد
ابن الخطيب: أعمال الأعلام. مرجع سابق، ص ١٤٤.